

اختيارات فكرية تربوية منتخبة من مبادئ، وقوانين النظرية السلوكية،

وشواهدا من القرآن والسنة

عبد الغفور المودن

إشراف: فضيلة الأستاذ: الدكتور أحمد غاوش

جامعة القاضي عياض

كلية الآداب والعلوم الإنسانية والفنون وعلوم التربية

المملكة المغربية

ملخص البحث

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، وعلى آله، وصحبه، والتابعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد؛ فإن هذا ملخص لمقالي الذي عنونت له ب ((اختيارات فكرية تربوية منتخبة من مبادئ، وقوانين النظرية السلوكية، وشواهدا من القرآن والسنة))، والغرض من البحث في هذا الموضوع هو إظهار بعض الجوانب المفيدة، والمبادئ الناجحة التي توصلت إليها نظريات التعلم، في مجال علوم التربية، وركزت في هذا المقال على النظرية السلوكية؛ لأنها أول نظرية أحدثت ثورة في علم النفس التربوي، وقد أجرى مؤسسوها عدة تجارب ساعين من وراء ذلك إلى استخلاص قوانين يلتجأ إليها لتسهيل عملية التعلم، واكتساب المعرفة.

وأما ربطتي لتلك الاختيارات الفكرية التربوية التي انتقيتها بالنصوص الشرعية، فجاء ليشهد لها بالنجاعة والمصادقية، وليبين أن ما قرره علماء المدرسة السلوكية إنما تبناه، وقدموه ليفسروا به فعل التعلم عند الإنسان، وليكون أحد الحلول الناجحة للرقى بمستواه التعليمي من مرحلة إلى مرحلة، ومن طور إلى طور، وهذا لا يعني أنهم قد حققوا ما سعوا إليه على وجه الكمال والتمام، وبخاصة إذا علمنا أنهم حاولوا أن يتعاملوا مع الإنسان على أنه آلة، ونحوًا عنه تفكيره وذكائه، وإدراكه، ونظروا إلى التعلم على أنه عبارة عن استجابة لمثير؛ لكن مع ذلك كله فإن أعمالهم وتجاربهم قد أفادت كثيرا في ميدان التربية والتعليم.

والذي يساعدنا على الاستفادة من النظرية السلوكية واستثمار نتائجها هو أن ننظر إليها مع غيرها من المدارس على أنها كل متكامل يصب في منبع واحد، ويدور في فلك واحد، ونأخذ من كل نظرية ما يلائم الوضعية التعليمية التي نحن فيها.

وإذا كان الأمر كذلك؛ فإني خصصت هذا المقال لاستخراج بعض الأفكار التربوية المفيدة من النظرية السلوكية، على أن أخصص المقال الثاني للنظريات المعرفية، وجاء بحثي في هذا المقال موزعا على ثلاثة مباحث مُفتتحة بمقدمة، محتومة بخاتمة، فأما المبحث الأول فقدمت فيه نبذة عن النظرية السلوكية وبينت أن ركيزتها التي تقوم عليها هي الربط بين المثير والاستجابة في التعلم، ثم تناولت بعض المفاهيم المرتبطة بها مثل التعلم، والنضج، والدافعية، والوضعية التعليمية، باعتبارها عناصر أساسية لفهم السلوك الإنساني في السياق التربوي، وفي المبحث الثاني عرضت نماذج من التجارب التي أجراها رواد هذه النظرية، فاخترت تجربة بافلوف على الكلب التي أوضحت أن تكرار الإثارة أدى إلى حدوث استجابة من قبل الكلب، وتجربة واطسون على الطفل مع الفأر التي بينت أن السلوك الإنساني قابل للتغيير والتوجيه، وتجربة سكينر على الحمامة التي أظهرت ما للتعزيز والدعم في ضبط السلوك وتوجيهه، وقد حاولت في المبحث الثالث الاستشهاد من الكتاب والسنة، لتلك القوانين والمبادئ التي ذكرتها، مع بيان وجه الاستدلال، كاشفا لأهميتها في المجال التربوي، وإظهارا لانسجامها مع التصور الإسلامي للسلوك والتعلم، ثم ختمت البحث بخاتمة أوردت فيها النتائج التي توصلت إليها.

مقدمة

الحمد لله، له الحمد كله، والأمر كله، لا إله غيره، عز ذكره، وعظم شأنه، وتقدست أسماؤه، اختص من شاء من عباده بفضلته، وإحسانه، والصلاة والسلام على من اصطفاه واختاره، وانتقاها واجتباها، وشرح صدره، وطهر قلبه، ورفع ذكره، وعلى آله وصحبه، ومن اهتدى بهديه، واقتفى أثره في ظاهره وباطنه.

وبعد؛ يعد التعرف على النظريات التعليمية ودراساتها أمرا ضروريا للمشتغلين بالميدان التربوي، والمعلم والمرابي ينبغي أن يكون له اطلاع على ما سطر فيه وقرر، ويكون عنده علم بما توصل إليه رواد نظريات التعلم من القواعد والأفكار المسهمة والمعينة على إنجاح العملية التعليمية - التعلمية، وأدائها على أحسن وجه وأكملها، فإذا كان في فصله الدراسي استصحب تلك القواعد والمبادئ، ووظفها في تدريسه، ورجع إليها لحل مشكلاته.

ونظريات التعلم باتجاهيها الترابطي والمعرفي؛ قدمت أبحاثا، وتجارب تشكل بنيانا أساسيا ومتكاملا، يعتمد عليه في تحقيق تعلم ذي جودة، وتعلم يضمن تكافؤ الفرص بين المتعلمين، ويجعلهم متساوين في الاستفادة من حقهم في التعلم.

وتلك النظريات وإن كانت قد أجريت في معظمها على الحيوانات، ووجهت لها انتقادات، ففيها جوانب إيجابية كثيرة، وتعدد التجارب التي أجريت وتنوعها، أسهم في إيجاد وفرة في المجال التربوي، يأخذ منه كل معلم ومرب ما يلائم متعلميه، ويختار الأنسب، والأفجع لكل فصل من فصوله.

ولقد تيسر لي تجريب بعض ما اطلعت عليه في هذه النظريات من القوانين، والقواعد، ومن بين تلك القوانين والقواعد: (العقاب البليغ يؤدي إلى نقيض القصد)، أي: إنه يفسد عليك المتعلم ويدفعه إلى النفور، والعصيان، وربما يصبح عنده انطواء، وخوف مفرط، بخلاف العقاب الخفيف، فإنه يحقق المبتغى، فلو أنزلت بالتلميذ عقوبة قاسية، لكان ذلك مثبطا له، أو حاملا له على العصيان والتمرد والتفلة أكثر؛ لكن إذا كان العقاب بالمقدار والشكل المناسبين، فإنك ستصل إلى النتيجة المنشودة والمطلوبة في الغالب.

ومما يؤكد أهمية البحث في الموضوع ما يرومه من محاولة للتأصيل للمبادئ التربوية، والقوانين التعليمية - التعلمية؛ المستقاة من النظريات التعليمية، وربطها بالنصوص الشرعية من قرآن وسنة، مما يعضد مصداقيتها، ويشهد لصلاحيتها، ويشجع على الاستناد إليها، والأخذ بها في الممارسة التربوية.

هذا؛ وسأخصص هذا المقال الأول لاستخراج جملة من الأفكار التربوية من النظرية السلوكية باعتبارها النظرية الأولى التي أحدثت تغييرا بينا في المجال التعليمي والتربوي، وسأبدل وسعي في ربطها بشواهدا من كتاب الله، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، على أن أخصص المقال الثاني للنظريات المعرفية إن شاء الله.

وأما عن عنوان البحث فقد أسميته ب (اختيارات فكرية تربوية منتخبة من مبادئ، وقوانين النظرية السلوكية، وشواهدا من القرآن والسنة)، وقسمت مادته العلمية إلى ثلاثة مباحث؛ المبحث الأول قدمت فيه نبذة للتعريف بالنظرية السلوكية، وبعض المصطلحات ذات الصلة، وفي المبحث الثاني عرضت تجارب مختارة أجراها رواد النظرية السلوكية، وحاولت مناقشتها وإجراء مقارنة يسيرة فيما بينها، أما المبحث الثالث فقد قمت بربط بعض مبادئ وقوانين النظرية السلوكية بما يشهد لها من نصوص القرآن والسنة،

ثم ذيلت المباحث الثلاثة بخاتمة جمعت فيها ما توصلت إليه من النتائج، وبعد الخاتمة رتب المصادر والمراجع المعتمدة في البحث في لائحة خاصة بها، ووضعت فهرسا للمادة التي يحتوي عليها البحث.

ثم إنه لا ينبغي أن يفوتني أن أتقدم بالشكر إلى أستاذي المشرف على بحثي، فضيلة الدكتور أحمد غاوش الذي وافق على البحث في الموضوع بعد الاطلاع عليه، والذي لمست منه عناية فائقة به، وسخاء في النصح والتوجيه، فأسأل الله عز وجل أن يتقبل من الجميع صالح الأعمال، وأن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه الكريم، وأن ينفعنا بما يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

وقبل أن أنتقل إلى مباحث الموضوع أود أن أذكر بعض الكلمات المفتاحية وهي كالآتي:

النظرية السلوكية - التعلم - النضج - الوضعية التعليمية - الاستبطان - الشعور - المثير - الاستجابة - المثير الشرطي - المثير الطبيعي - استجابة طبيعية - الارتباطية - التكرار - التعزيز - التدعيم - العقاب.

المبحث الأول: التعريف بالنظرية السلوكية، وبعض المصطلحات ذات الصلة.

تمهيد

تعتبر النظرية السلوكية من أشهر النظريات التعليمية، التي أسهمت في تطوير علم النفس التربوي، وهي وإن أجريت معظم تجاربها على الحيوانات فإن المقصود هو دراسة سلوك الإنسان.

لذا حاول رواد هذه النظرية فهم السلوك الإنساني من خلال تجاربهم المتنوعة التي أجروها، ومن خلال ملاحظاتهم المتعددة للظواهر القابلة للقياس، والتحقق، لما علموا من أن فهم سلوك الإنسان يعد مدخلا ضروريا، ومحورا أساسيا في القدرة على تغيير سلوكه؛ لأن التعلم عند أصحاب هذه النظرية يمكن أن نختصره بالقول، إن التعلم هو تغير في السلوك، عن طريق مثير يحقق الاستجابة. وفي هذا المبحث الأول سأقدم تعريفا مختصرا للنظرية السلوكية، وتعريفا بمصطلح التعلم، وبعض المصطلحات ذات الصلة به؛ لأنها من المصطلحات الأساسية في البحث.

المطلب الأول: التعريف بالنظرية السلوكية.

الفرع الأول: تعريف النظرية لغة:

النظرية جمع نظريات، وورد في المحيط في اللغة: أن (النظر: معروف، من نظر العين ونظر القلب)⁽¹⁾.

وجاء في لسان العرب: (النظر: الفكر في الشيء تقديره، وتقيسه منك)⁽²⁾.

وفي المعجم الوسيط: ((نظر) إلى الشيء: ... أبصره وتأمله بعينه و(نظر) فيه: تدبر وتفكر، وجمعهم يناظر الألف: يقاربه، و(تناظر) القوم ... في الأمر تجادلوا وتراوضوا، و(تنظره) تأمله بعينه ... وتوقعه ...، و(النظارة) الفراسة والحذق ... ويقال: في هذا نظر: مجال للتفكير لعدم وضوحه، و(النظري)، يقال: أمر نظري، وسائل بحثه الفكر والتخيل)⁽³⁾.

(1) المحيط في اللغة، لإسماعيل بن عباد الصاحب (ت: 385 هـ)، مادة: (ن ظ ر)، (21/10).

(2) لسان العرب، لأبي الفضل محمد ابن منظور (ت: 711 هـ) مادة: (ن ظ ر)، (193/14).

(3) المعجم الوسيط، لمجمع اللغة، مادة: (ن ظ ر)، (ص: 931-932).

فعند التأمل لهذه الشروحات اللغوية لمادة (ن ظ ر)، يتضح أن لها مدلولات عديدة من بينها: التأمل، والفكر، والملاحظة، والمراوغة، والفراسة، والحذق، والمقاربة...

وتلك المعاني تبين عمل المنظر، والسبيل الذي سلكه لبناء نظريته، أي: إن النظرية اختراع وابتكار بشري، أساسه الفكر، والتأمل، والتجربة... إما بوسيلة العين المجردة، أو الفكر، والتأمل الباطني، أو بهما معا.

الفرع الثاني: تعريف النظريات اصطلاحاً:

عرفت النظرية بعدة تعريفات منها:

تعريف كيرلنجر الذي قال: إن النظرية: (مجموعة من البناءات، والافتراضات المترابطة؛ التي توضح العلاقة القائمة بين عدد من المتغيرات، وتهدف إلى تفسير الظاهرة، والتنبؤ بها)⁽¹⁾.

- وتعريف سبّيس بقوله: النظرية (نظام من المفاهيم المجردة، تستخدم لتنظيم مجموعة من المبادئ، والقوانين التي لم يكن بينها أي ارتباط من قبل في بناء استنباطي موحد)⁽²⁾.

ومن خلال التأمل في التعريفين يتضح أن النظرية:

- نظام متكامل موحد.

- عبارة عن بناءات، ومفاهيم.

- افتراضات مترابطة تكشف العلاقة الموجودة بين عدد من المتغيرات.

- تسعى إلى تفسير الظواهر وتوقعها.

وللدكتور عماد عبد الرحيم الزغلول تعريف شامل وأوسع ذكر فيه أن النظرية بالمفهوم العام: (هي مجموعة من القواعد والقوانين التي ترتبط بظاهرة ما، بحيث ينتج عن هذه القوانين مجموعة من المفاهيم، والافتراضات، والعمليات التي يتصل بعضها ببعض لتؤلف نظرة منظمة، ومتكاملة حول تلك الظاهرة، ويمكن أن تستخدم في تفسيرها، والتنبؤ بها في المواقف المختلفة)⁽³⁾.

الفرع الثالث: نبذة عن النظرية السلوكية

نشأت المدرسة السلوكية التي تعزى إليها النظرية السلوكية بعد الحرب العالمية الثانية، وهي من المدارس التي أثرت بشدة في علم النفس، وأحدثت فيه ثورة كبيرة، إلى درجة القطيعة مع المدرسة الاستنباطية التي كانت تركز على الشعور، ومفاهيم أخرى⁽⁴⁾، وقد حاولت الارتقاء بعلم النفس إلى مستوى العلوم الرياضية، والفيزيائية؛ لاعتمادها خطوات المنهج العلمي، والملاحظة؛ ووضع الفرضيات؛ ثم التجريب؛ فالنتيجة؛ فالتأويل؛ فالخاتمة أو التعميم⁽⁵⁾.

(1) نظريات التعلم، للدكتور عماد عبد الرحيم الزغلول (ص: 26)، نظريات التعلم وتطبيقاتها التربوية، لكفاح يحيى، ومحمد سعود، وعلي محمد، (ص: 7)، مع اختلاف يسير بين الكتابين في لفظ التعريف.

(2) نظريات التعلم، للدكتور عماد عبد الرحيم الزغلول (ص: 26).

(3) المرجع نفسه (ص: 26).

(4) المرجع في كيفية التدريس، للدكتور سعيد حلیم، (ص: 120-121).

(5) المعين في التربية، للعربي اسليماني، (ص: 107)، المرجع في كيفية التدريس، (ص: 121).

وقد أكد واطسون زعيم المدرسة السلوكية الأمريكية أن علم النفس ينظر إليه السلوكيون على أنه حقل تجريبي موضوعي خالص، يتجه نحو التنبؤ بالسلوك وضبطه، وليس الاستبطان جزءا رئيسيا من منهجه، ولا ألفاظ الشعور قادرة على التعبير عن حقائقه⁽¹⁾. ويعتبر السلوك عند منظري النظرية السلوكية من أولويات علم النفس ومواضيعه الأساس، ولم يسبق إلى هذا الاعتبار أي نظرية غيرها؛ لأن المدارس قبلها تركز على الشعور، باعتباره من أولويات علم النفس، ومواضيعه الأساس، حتى سمي علم النفس قبل النظرية السلوكية بـ (علم الشعور)، فالمدرسة السلوكية هي التي وسعت مجال اهتمام علم النفس؛ وجعلته يشمل جميع أوجه النشاط⁽²⁾. ومن رواد النظرية السلوكية بشكل عام؛ بافلوف (ت: 1936)، وواطسون (ت: 1958)، وثورندايك (ت: 1949)، وسكينر (ت: 1990).... وبالرغم من الاختلافات الموجودة بينهم، فإنهم يتفقون على قاعدة مشتركة بينهم ألا وهي: لا استجابة بدون مثير؛ لأن التعلم بناء على هذه النظرية: تغيير أو تعديل لسلوك المتعلم، والذي يحدث عندما يتعرض لمثيرات بيئية خارجية أو داخلية.

والسلوك هو استجابة لمثير، وله دور مهم في التخطيط للدرس؛ وإنجازته في الفصل الدراسي⁽³⁾. ولقد تطورت النظرية السلوكية مع مرور الزمن من سلوكية كلاسيكية إلى سلوكية حديثة، ويعتبر سكينر من أبرز ممثلي التوجه الجديد في السلوكية الحديثة⁽⁴⁾.

المطلب الثاني: التعريف بمصطلح التعلم، وبعض المصطلحات ذات الصلة به.

الفرع الأول: تعريف التعلم لغة، واصطلاحا:

أولا: تعريف التعلم لغة:

ورد في معجم مقاييس اللغة: (تعلمت الشيء، إذا أخذت علمه)⁽⁵⁾.

وفي لسان العرب: (وعلمت الشيء أعلمه علما: عرفته... وعلمه العلم وأعلمه إياه فتعلمه... وعلمته الشيء فتعلم، وليس التشديد في لفظ التعلم للتكثير)⁽⁶⁾.

وجاء في المعجم الوسيط: (تعلم الأمر: أتقنه وعرفه)⁽⁷⁾.

وانطلاقا مما جاء في هذه النصوص يتبين أن من معاني التعلم: الإتقان للشيء، والمعرفة له، والأخذ به، ولا شك أن هذه المعاني كلها من مقاصد، وأهداف التعلم.

ثانيا: تعريف التعلم اصطلاحا:

(1) دليل علوم التربية والديداكتيك العام، لعبد الفتاح ديون، (ص: 33).

(2) التربية والتعليم من أجل التنمية، ل: محمد عليوش، (ص: 43).

(3) المعين في التربية، (ص: 107)، الجامع في علوم التربية وقضايا ومستجدات التربية والتكوين، لعبد الرحمن التومي، (ص: 43/1).

(4) التربية والتعليم من أجل التنمية، (ص: 42-45).

(5) معجم مقاييس اللغة لأحمد ابن فارس (ت: 395)، (مادة: ع ل م)، (ص: 110/4).

(6) لسان العرب (مادة: ع ل م)، (ص: 371/9).

(7) المعجم الوسيط (مادة: ع ل م)، (ص: 624).

بالتأمل في معاني التعلم اللغوية السالفة الذكر سيتبين أن بينها رابطا مشتركا، وهو أن التعلم تحول وتغير من حال إلى حال، ويقال عن الإنسان إنه تعلم حين يتمكن من القيام بعمل لم يكن يستطيع القيام به من قبل، ويتأكد خلال السلوك، والتغيرات الحاصلة في هذا السلوك، إننا نتعلم كيف نقرأ، وكيف نسر الآخرين، وحين نقوم بهذه الأمور فإن سلوكنا يصبح مختلفا اختلافا أساسيا، وبهذا المعنى فإن التعلم يشتمل على التحسن، وهكذا فحين تتحسن قراءتنا نكون قد تعلمنا، وتغير سلوكنا.⁽¹⁾

وذكر الدكتور حسن اللحية أن (التعلم مجموعة من الأنشطة تسمح للشخص باكتساب أو تعميق معارفه أو تنمية استعداداته ومواقفه)⁽²⁾.

وعرف العربي اسليماني التعلم بأنه: (سيرورة يتم عبرها تملك معرفة أو مهارة أو اكتساب كفاية جديدة أو تنمية كفاية قديمة، والتعلم في رأينا عملية إرادية وفعل قصدي)⁽³⁾.

هذا؛ ونستخلص من هذه التعاريف أن التعلم ليس سلوكا تلقائيا فحسب؛ وإنما هو تغير، وتحول، وقدرة على القيام بما لم نستطيع القيام به، وسيرورة ونشاط تؤثر فيه عوامل وتحكمه شروط، ومن تلك الشروط والعوامل: النضج؛ والتدريب؛ والدافعية؛ والوضعية التعليمية؛ والتكوين العصبي للفرد...؛ وفيما يأتي حديث عن بعض تلك العوامل والشروط.

الفرع الثاني: النضج

النضج له دور أساسي في فعل التعلم، ومعناه أن يبلغ الإنسان درجة معينة من النمو العقلي، والجسدي، والعصبي... ودرجته، ومستواه يختلف باختلاف الفرد، واختلاف البيئة، وهو أيضا مجموعة من التغيرات التي تحصل في شخصية الفرد، وتؤهله لأن يكون أكثر استعدادا ورغبة في التعلم؛⁽⁴⁾ لكن النضج ليس هو العامل الوحيد الذي يتدخل ويؤثر في عملية التعلم، بل يتدخل في عملية التعلم عدة عوامل، وكلما اجتمعت للفرد وتحققت فيه، تعلم أكثر من غيره.

الفرع الثالث: الدافعية أو الدافعية.

(هي ذلك الاستعداد النسبي لدى الفرد الذي يحدد مدى سعيه ومثابرته لبلوغ نوع من الإشباع لحاجاته)⁽⁵⁾، ويستخلص من هذا النص أن الدافعية أو الدافعية إما أن تكون داخلية كما يفيد النص فتكون بمثابة محركات داخل الشخص تدفعه إلى القيام بعمل أو فعل ما، بغض النظر عن كون الفعل حسنا أو قبيحا، وإما أن تكون خارجية وهي التي تأتي من قبل المعلم الذي يجب عليه أن يحلل تلك السلوكيات والأفعال الصادرة عن المتعلم، فإن كانت حسنة ثمنها وعززها، وإن كانت سيئة قومها، ووجه المتعلم إلى ما يفيد، ويسهل عليه عملية التعلم، يقول الدكتور جابر عبد الحميد جابر (ونستطيع القول إن للدوافع تأثيرا هاما في عملية التعلم، إذ يكفي أن نشعر بالتلميذ بأهمية شيء معين لنحفزه على تعلمه)⁽⁶⁾.

(1) علم النفس التربوي، للدكتور فاخر عاقل، (ص: 150).

(2) دليل المدرس التكويني والمهني، للدكتور حسن اللحية، (ص: 186).

(3) المعين في التربية، (ص: 174).

(4) التربية والتعليم من أجل التنمية، ل: محمد عليوش، (ص: 50). سيكولوجية التعلم، ونظريات التعليم، للدكتور جابر عبد الحميد جابر، (ص: 09).

(5) التربية والتعليم من أجل التنمية، (ص: 50).

(6) سيكولوجية التعلم، ونظريات التعليم، (ص: 14).

الفرع الرابع: الوضعية التعليمية

هي الوضعية التي يتعلم فيها المتعلم شيئاً ما، سواء كان هذا التعلم تحكمه ضوابط، ويحصل في إطار منظم، أو يحصل بطريقة عفوية واستكشافية أو عن طريق التقليد، كما هو الحال بالنسبة لتعلم الطفل لكيفية اللعب؛ فإما أن يكتشف ذلك هو بنفسه أو يقلد فيه غيره من الأطفال؛ لكن هذا النوع من التعلم غير المؤطر بنظام، ولا بجدول زمني، ليس هو المقصود هنا، وإنما الحديث عن التعلم الذي يكون في وضع معين مقصود يتوخى منه أن يكتسب فيه المتعلم مهارات، ومعارف، وقدرات محددة، فإن كان هذا الوضع التعليمي ملائماً تتوافر فيه إمكانيات تحقيق التعلم، من جانب المتعلم، والمعلم، والمادة، والوسائل المستخدمة في عملية التعلم، حصل التعلم، وبلغنا الأهداف المطلوبة؛ لأن التعلم مرتبط بتلك العناصر كلها وهي التي تشكل وضعية تعليمية جيدة أو غير جيدة.

خلاصة

يتضح من خلال التعريف بالنظرية السلوكية أنها تمثل إطاراً علمياً يمكن من فهم السلوك الإنساني، وكشف سبل التعلم لديه، وأما المفاهيم التي عرفتها فهي تشكل جزءاً من منظومة مترابطة تسهم في توضيح كيف يتعلم الإنسان، ويكتسب الخبرات، والمهارات، وتبين كذلك أن التعلم هو تغير في السلوك، وأن النضج عامل محدد لقدرة الفرد على الاستجابة، وأما الوضعية التعليمية فهي تتنوع إلى منظمة، وغير منظمة، ولكل منهما أثره على فعل التعلم، ويستفاد من تحديد معنى الدافعية أنها من القوى الضرورية التي تجعل الفرد راغباً في التعلم أو راغباً عنه، ومن هنا تأتي أهمية هذه المصطلحات في سياق البحث.

المبحث الثاني: عرض تجارب مختارة أجراها رواد النظرية السلوكية، ومناقشتها:

تمهيد

إن عرض التجارب التي أجراها أقطاب النظرية السلوكية هي الخطوة الأساسية لمعرفة وفهم قوانينها ومبادئها؛ لأن هذه التجارب هي من الأسس الذي بُنيت عليه قوانين السلوك، والتعلم، وقد قدم بافلوف من خلال تجربته على الكلب نموذجًا واضحًا للارتباط بين المثير والاستجابة، وأما واطسون ففي تجربته على الطفل مع الفأر أكد لنا قابلية السلوك الإنساني للتغيير، وأجرى سكينر تجاربه على الحمامة، فبين لنا بذلك أثر التعزيز في ضبط السلوك وتوجيهه، فإلى عرض تلك التجارب وتناولها بشيء من التفصيل.

المطلب الأول: عرض تجارب مختارة أجراها رواد النظرية السلوكية

الفرع الأول: تجربة إيفان بافلوف (1849 - 1936):

أجرى بافلوف تجربته على كلب، وذلك لما قام بتدريبه على الوقوف في مكان أعد لذلك بعناية، وبعد التحضير التام لأجواء إجراء التجربة بدقة، قام بتقديم مثير صناعي؛ لكن لم تحدث أي استجابة من قبل الكلب، فلم يسئل لعبه بفعل الإثارة، وبعد مرور ثوان على الإثارة الصناعية، قدم له طعاما، فلوحت سيلان لعب الكلب، وبعد تكرار التجربة نفسها عدة مرات، أصبح لعب الكلب يسيل بمجرد الإثارة الصناعية دون أن يصاحبها طعام⁽¹⁾.

❖ اختصار التجربة وعرض نتائجها:

- عدم سيلان لعب الكلب عند حدوث إثارة صناعية أولى - صوت الجرس مثلا -.
- سيلان لعب الكلب - استجابة طبيعية - عندما يقدم له الطعام - مثير طبيعي -.
- بعد المزاجية بين المثير الصناعي والطبيعي عدة مرات، ظهر سيلان لعب الكلب.
- لوحظ سيلان لعب الكلب - استجابة شرطية - بعد ذلك بمجرد سماع صوت الجرس - المثير الصناعي الشرطي - دون أن يقدم له طعام.

الفرع الثاني: تجربة واطسون (1878 - 1958):

أحضر واطسون فأرا لطفل؛ - وعند البعض أرنبا - والطفل لم يظهر عليه أي خوف منه في البداية، بل حاول اللعب معه، فقام واطسون بإثارة خوفه منه، وذلك بإطلاق صوت قوي مخيف للطفل مصاحب لظهور الفأر (الأرنب)، فأصبح الطفل بعد ذلك يخاف من الفأر (الأرنب) بمجرد رؤيته، دون أن يصحبه صوت، وعممت بعد التجربة، فأصبح الطفل يشعر بالخوف تجاه كل ما يشبه الفأر (الأرنب)⁽²⁾.

(1) دليل المدرس التكويني والمهني، (ص: 189 - 190)، المرجع في كيفية التدريس، (ص: 121 - 122)، دليل علوم التربية والديداكتيك العام، (ص: 35 - 36).

(2) دليل المدرس التكويني والمهني، (ص: 190)، المرجع في كيفية التدريس، (ص: 120)، دليل علوم التربية والديداكتيك العام، (ص: 36)، نظريات التعلم، (ص: 64 - 65).

❖ اختصار التجربة وعرض نتائجها:

- طفل اعتاد اللعب مع فأر (أرنب) ولم يكن يشعر تجاهه بأذى خوف.
- ظهور الفأر (الأرنب) للطفل ومعه صوت محيف - مثير طبيعي - مما أدى إلى شعور الطفل بالخوف - استجابة طبيعية -.
- تطور الأمر عند الطفل فأصبح يعتريه الخوف - الاستجابة - بمجرد وقوع عينه على الفأر (الأرنب) - المثير -.
- تطور الأمر عند الطفل أكثر بعد التعميم، فأصبح يخاف من كل شيء يشبه الفأر (الأرنب).

الفرع الثالث: تجربة سكينر (1904 - 1990):

قام سكينر بإجراء عدة تجارب من بينها أنه وضع حمامة في قفص، وإذا نقرت في الموضع المخصص للنقر (الاستجابة)، حصلت على الطعام (المعزز الإيجابي)، وبسبب الخبرة التي تكونت لدى الحمامة أصبحت تكرر السلوك (الاستجابة)، للحصول على الطعام (المعزز).

وفي تجربة أخرى كان نقر الحمامة يتبع بصعق كهربائي (العقاب) لكفها عن النقر، فتغير سلوك الحمامة من النقر إلى الامتناع، والهروب (الاستجابة)، تجنباً للصدمة الكهربائية (المعزز السلبي)⁽¹⁾.

❖ اختصار التجربة وعرض نتائجها:

- المعزز الإيجابي - الطعام - لا يقدم للحمامة إلا بعد الاستجابة.
- لوحظ تغير سلوك الحمامة بسرعة، بسبب الدعم والتعزيز.
- تمكن سكينر بسبب دعمه لسلوك معين من سلوكيات الحمامة إلى تعليمها إعادة القيام بالسلوك نفسه.
- العقاب (المعزز السلبي) يصيب الحمامة بمجرد النقر.
- توقف الحمامة (الاستجابة) عن النقر فرارا من العقاب.

المطلب الثاني: مناقشة تلك التجارب المختارة:

قمت في المطلب الأول من هذا المبحث بعرض بعض التجارب التي أجراها مؤسسو النظرية السلوكية، وفي هذا المطلب سأحاول - بإذن الله - مقارنة تلك التجارب بعضها ببعض، مشيراً إلى بعض مواطن الاتفاق والاختلاف، وذلك على النحو الآتي:

الفرع الأول: تجربة إيفان بافلوف:

تجربة بافلوف من النوع الذي يؤكد ضرورة المثير لإحداث الاستجابة واستمرارها، والمثير الشرطي بالنسبة لبافلوف، يسبق الاستجابة التي يحدثها المثير الطبيعي عند الكائن الحي بوقت يسير جداً، وبعد المثير الشرطي مباشرة، يقدم المثير الطبيعي الذي أُلّفه الكائن الحي ويحدث عنده الاستجابة، وعند تكرار هذه العمليات، فإن الكائن الحي يصدر استجابة بمجرد تقديم المثير الشرطي تماماً، دون أن يتلوه المثير الطبيعي الذي كان سبباً واضحاً وراء ظهور الاستجابة، وقريب من تجربة بافلوف، تجربة واطسن، التي سأحدث عنها في الفقرة الآتية.

(1) نظريات التعلم، (ص: 92 - 93)، للدكتور عواطف محمد محمد حسانين، (ص: 106).

الفرع الثاني: تجربة واطسن:

فواطسن استطاع أن ينشئ لدى الطفل خوفا من الفأر (المثير الشرطي)، عن طريق المثير الطبيعي (الصوت المزعج) وذلك لما قدم المثيرين معا للطفل، وكرر العملية نفسها عدة مرات، فأصبح الطفل يخاف بمجرد رؤية الفأر (المثير الشرطي)، ومما يميز تجربة هذا الأخير عن تجربة سابقه أنها أجريت على إنسان؛ طفل، فقد استطاع تغيير سلوك إنسان من حال الأمن إلى حال الخوف، وهذا لا شك سيفيد المتعلم عندما يريد تغيير سلوك تلاميذه من سلوك إلى آخر، كما أن تجربته دليل على أن المثيرات تؤثر في سلوك الإنسان، لذلك فهي أقرب إلى الحقيقة من تجربة بافلوف التي أجريت على حيوان، أما من حيث المضمون فهما سيان؛ لأن كلاهما ربط الاستجابة بمثير.

الفرع الثالث: نظرية سكينر:

إذا انتقلنا إلى نظرية سكينر، وتجربته، والتي أيضا في السياق نفسه؛ الإثارة والاستجابة، إلا أن سكينر يضيف إلى المثير؛ المعزز أو المدعم، فالحماسة كما تقدم لما استجابت بالتوجه إلى ناحية المثير، أو بالنقر عليه، قدم لها طبقا من طعام، فهنا يلاحظ أن المعزز الذي يمكن أن نسميه حسب تجربة بافلوف مثيرا، لا يقدم إلا بعد أن تحصل الاستجابة، فكأنه بمثابة جزاء لهذه الحماسة، لما قامت بالمطلوب، وهذا يستفاد منه أهمية التدعيم، أو التعزيز في عملية التعليم؛ لأن ذلك ينتج عنه استمرار الفعل المرغوب، والتوقف أيضا عن غير المرغوب إذا كان المدعم أو المعزز على شكل عقاب؛ لأنه يمكن أن نقول عن تجربة سكينر، إن الحماسة إذا اتجهت إلى الناحية التي لا يريد، أو نقرت في موضع غير مرغوب فيه، لا يقدم لها طعاما، فأصبح فقدان المعزز هنا بمثابة عقاب، فقد حرمت من الطعام لما لم تستجب لما أراد سكينر، على أن هذا المعزز السلبي (العقاب) لا ينبغي أن نتصوره فقط في لحظة الحرمان من المعزز الإيجابي - عدم تقديم الطعام للحماسة - بل قد يكون هذا المعزز السلبي ملموسا محسوسا كالضرب - مثلا -، ويكون هو الآخر دافعا للكائن الحي إلى الاستجابة عن طريق الاستمرار في الفعل أو الإمساك عنه.

هذا؛ ويتقد على تجربة سكينر ما انتقد على تجربة بافلوف من حيث الكائن الحي الذي أجريت عليه التجربة، فإن كلا منهما أجرى تجربته على حيوان بينه وبين الإنسان اختلاف كثير؛ لكن إلى جانب ذلك، لا يمكن أن نعدم الفائدة من تجربة سكينر؛ لأننا نستفيد منها شيئا جديدا، ألا وهو: أن الدعم والتعزيز له دور مهم في تغيير السلوك، سواء كان الدعم والتعزيز سلبيا أو إيجابيا، إذا استخدمنا في المكان والوقت المناسبين.

خلاصة

يتبين مما مضى من التجارب أن الربط بين المثير والاستجابة هو محور النظرية السلوكية، لذلك تسمى أيضا بالترايبية لربطها بين المثير والاستجابة في أي تعلم، ويستخلص أن بافلوف وواطسن وسكينر ... هم أعمدة هذه النظرية وأقطابها، وأنهم استندوا في تجاربهم على الملاحظة والدراسات المحسوسة لسلوك الفئران، والحمائم التي وضعت في ظروف مضبوطة، وهذا ما يفسر وضوح قوانين هذه النظرية وكثير من المبادئ التي تتأسس عليها؛ لأن التجارب تجرى على الملموس المحسوس، على خلاف تجارب علماء الاتجاه المعرفي، فكثير منها لا يمكن التحقق منه؛ لأنها مبنية على أمور خفية، ودقيقة، إلا أنها أوفر مادة، وبحوثا، وأكثر تأثيرا على المجال التربوي، لأسباب سيأتي ذكرها في المقال الثاني إن شاء الله.

المبحث الثالث: اختيارات فكرية تربوية منتخبة من مبادئ، وقوانين النظرية السلوكية، وشواهدا من القرآن والسنة:

تمهيد

أوردت في المبحث السابق تجارب كل من إيفان بافلوف، وواطسن، وسكينر، وعلى الرغم من كونهم جميعا ينتمون إلى اتجاه واحد؛ إلا أن كل تجربة لا بد وأنها تتضمن إضافة، وأفكارا تربوية مفيدة، فتجارب من سلف ذكرهم؛ كلها تربط التعلم بالإثارة والاستجابة، لكن نظر بافلوف إلى المثير ليس كنظر سكينر ... وهكذا، أي أننا نجد في تجربة هذا من إضافات، ما لا نجده عند الآخر، ثم إني إن وجدت عند من لم أعرج على تجاربهم زيادة فائدة، فإني سأوردها منسوبة إليه.

المطلب الأول: نظرية إيفان بافلوف

الفرع الأول: ربط الاستجابة بالمثير، والمثير من أدواره الدعم والتعزيز، وقد يكون قبل الاستجابة أو بعدها.

يربط بافلوف وغيره من أصحاب هذا الاتجاه الاستجابة بالإثارة، فكل استجابة عندهم - سواء كانت تعلمًا أو غيره - لا يمكن أن تحصل إلا بإثارة، وهذه القاعدة إذا نظرنا إليها مفردة دون أن نربطها ببعض الفرضيات غير الصحيحة التي يذهبون إليها، سنجد أن لها أصلا في القرآن أو السنة، فالنبي صلى الله عليه وسلم لما بعث للدعوة الناس إلى دين الله وجل، كان أول ما أنزل عليه سور تتحدث عن الجنة، والنار، ومن مقاصد التذكير بالجنة والنار في بداية الدعوة، هو إثارة الرغبة والرغبة في قلوب العباد، وتليينها لتستجيب لرب الأرباب، وهذا ما يدل عليه الخبر الثابت عن عائشة رضي الله عنها كما في البخاري وغيره، فعن يوسف بن ماهك قال: «إني عند عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، إذ جاءها عراقي فقال: أي الكفن خير؟ قالت: ويحك! وما يضرك؟ قال: يا أم المؤمنين، أريني مصحفك، قالت: لم؟ قال لعلي أولف القرآن عليه، فإنه يقرأ غير مؤلف، قالت: وما يضرك أيه قرأت قبل؟ إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا تاب الناس إلى الإسلام، نزل الحلال، والحرام، ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر لقالوا لا ندع الخمر أبدا، ولو نزل لا تزنا لقالوا لا ندع الزنا أبدا ...»⁽¹⁾.

فهذا الأثر، بينت فيه أمنا عائشة رضي الله عنها، أن أول ما أنزل من القرآن كان فيه ذكر الجنة والنار، وقد أشارت إلى أن ذلك استمر إلى حين توبة الناس واستجابتهم، ثم بعد ذلك نزل الحلال، والحرام، فبينت أن استجابة الناس كانت بإثارة الخوف، والرجاء في قلوبهم ليذعنوا، ويخضعوا لربهم عز وجل، فيما أرسل به رسوله صلى الله عليه وسلم من التكليف الشرعية.

إن قاعدة الأثر استجابة بدون مثير، يؤكد أثرها أيضا تشريع الأذان، فالصحابة كانوا يتربون أوقات الصلاة، ويتحينونها، ولم يشرع آنذ شيء للدعوة إليها، وفي ذلك من المشقة ما فيه، فتذاكروا يوما هذا الأمر، فاقترح كل منهم ما بدا له من الحلول، وكان الحل هو النداء لكل صلاة عند حلول وقتها، فكان الصحابة ينتشرون، ويكسبون، ويشغل كل منهم بما بدا له، فإذا نودي بالصلاة استجابوا للمنادي، وأقبلوا إلى المسجد، فالأذان بالنسبة لهم "مثير" ومنبه، يُعلمهم بحضور وقت الصلاة، وحضورهم إلى المسجد لأداء فريضة الصلاة بمثابة "استجابة"، وبعد تشريع الأذان، لم يكونوا يتحينون الصلاة، ويتربون بها، بل كانوا يشتغلون، فإذا سمعوا النداء استجابوا، فأصبح النداء مثيرا لهم على الحضور إلى المسجد، بحيث إذا لم يسمعوهم لم يُقبلوا إلى المسجد لأداء فريضة الصلاة، وملابسات تشريع الأذان وتفصيلها قد حفظتها لنا كتب السنة، فمن ذلك ما في الصحيحين من حديث ابن عمر، يقول: (كان المسلمون حين قدموا المدينة، يجتمعون فيتحينون الصلاة ليس ينادى لها، فتكلموا يوما في ذلك، فقال بعضهم: اتخذوا ناقوسا مثل

(1) صحيح البخاري أو الجامع الصحيح المسند المختصر من حديث رسول الله له، وسنته، وأيامه، لأبي عبد الله محمد البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب تأليف القرآن، رقم الحديث: (4993).

ناقوس النصرى، وقال بعضهم: بل بوقا مثل قرن اليهود، فقال عمر: أولا تبعثون رجلا ينادي بالصلاة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « يا بلال! قم فناد بالصلاة»⁽¹⁾.

والملاحظ بالنسبة لهذه الإثارة المذكورة هذا، أنها وقعت قبل الاستجابة، كما هو الأمر عند بافلوف، إضافة إلى أن الإثارة المستفاد من أثر عائشة رضي الله عنها ونصوص أخرى من القرآن والسنة، تتضمن تعزيزا وتدعيما، فالترغيب في الجنة بمثابة تعزيز ودعم، ليقبل الناس على الطاعة، ويثبتوا عليها، أما الترهيب من النار، والتخويف من عذابها، فهو بمثابة تعزيز وتدعيم أيضا؛ لكنه سلبي، الهدف منه حمل الناس على الكف عن كل فعل غير مرغوب فيه شرعا، فالمتعلم يثار لفعل الشيء كما يثار لتركه، فالأستاذ قد يكلف التلميذ بعمل منزلي - مثلا - ويعدّه بثواب وجزاء على قيامه بالمطلوب، فإذا أنجز المطلوب، اعتبر ذلك "استجابة"، كما أن وعده بالثواب والجزاء هو بمثابة "مثبر"، ثم إنه قد يتوعده بعقاب عندما يصدر منه سلوك سيء في الفصل - الاستجابة التي أثارها أسباب أخرى - ، من أجل أن يترك هذه الاستجابة غير المحمودة إلى استجابة محمودة، وهي اجتناب السلوك السيء داخل الفصل، فالأستاذ بفعله الأول: قد شجع التلميذ وعززه "وأثار" لديه الرغبة في الاستجابة، أما بفعله الثاني: فقد "أثار" عند التلميذ الرهبة من أجل التوقف عن الاستجابة المحظورة، فالإثارة الأولى: داعمة، والإثارة الثانية كافة، وموجهة.

ومن أمثلة المثبر قبل الاستجابة قوله صلى الله عليه وسلم كما في حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه: « من حفر رومة فله الجنة » ... وقال: « من جهز جيش العسرة فله الجنة»⁽²⁾.

فالنبي صلى الله عليه وسلم هنا قام بإثارة الرغبة في الإنفاق لدى الصحابة، وقد أثمرت الإثارة، وتحققت الاستجابة من عثمان رضي الله عنه، وأرضاه.

الفرع الثاني: التكرار؛ لأنه الوسيلة التي تُحدث الاستجابة، وتضمن استمرارها.

لا شك أن للتكرار أثر كبير في استيعاب المعلومة، ودوام تذكرها، والتمكن منها، وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم ما يؤكد أن تكرار الكلام على السامع يؤدي إلى الفهم، والاستيعاب (الاستجابة)، وقد كان هذا الفعل ديدن الرسول صلى الله عليه وسلم في كلامه، وسلامه، ويقول أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: «أنه كان إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثا حتى تفهم عنه، وإذا أتى قوما فسلم عليهم سلم عليهم ثلاثا»⁽³⁾، وما أخبر به أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الأثر، قريب منه ما أخبرت به عائشة رضي الله عنها، فقد وصفت طريقة كلام الرسول صلى الله عليه وسلم فقالت: لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يسرد الكلام كسرديكم، كان يتكلم بكلام فصل بين، يحفظه من سمعه، ولو عدّه العاد لأحصاه⁽⁴⁾ - أو كما قالت رضي الله عنها، فالنبي صلى الله عليه وسلم كان يتكلم بكلام يمكن لسامعه أن يعده عدا، ثم مع ذلك يعيده، ولا شك أن قصد النبي صلى الله عليه وسلم بفعله ذلك؛ هو استيعاب السامع لكلامه، وحفظه؛ لأن الكلام البين الواضح المكرر يحفظ، ويتمكن منه، ويرسخ في ذهن السامع، فهذان الخبران وردا في وصف طريقة الرسول صلى الله عليه وسلم في الكلام، وبين الكلام وتكراره

(1) صحيح البخاري، كتاب الأذان، باب بدء الأذان، رقم الحديث: (604)، صحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب بدء الأذان، رقم: (377).

(2) صحيح البخاري، كتب فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، باب مناقب عثمان بن عفان، أخرجه البخاري معلقا، رقم الحديث: (2778)، وذكر الحافظ ابن حجر - (852 هـ) - عن أبي نعيم أحمد ابن عبد الله - (ت: 430 هـ) - أنه قال: (وقد وصله الدارقطني والإسماعيلي وغيرهما...)، فتح الباري، شرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني (497/5).

(3) صحيح البخاري، كتاب العلم، باب من أعاد الحديث ثلاثا ليفهم عنه، رقم الحديث (95).

(4) المصدر نفسه، كتاب المناقب، باب صفة النبي صلى الله عليه وسلم، رقم الحديث (3567).

من السنن الفعلية التي درج عليها رسول الله، وقد أوصى صلى الله عليه وسلم بسنة التكرار والإعادة؛ وبخاصة فيما يتعلق بالقرآن الكريم، فعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إنما مثل صاحب القرآن كمثل صاحب الإبل المعقلة، إن عاهد عليها أمسكها، وإن أطلقها ذهب»⁽¹⁾، فالرسول صلى الله عليه وسلم يوصي في هذا الحديث؛ بتعهد القرآن بالمراجعة والتكرار؛ لئلا ينسى، ويذهب على صاحبه، وحثُّ الرسول صلى الله عليه وسلم على تكرار القرآن، وتعهده، يستفاد منه؛ أن كل العلوم إذا لم يتفقدتها صاحبها بالتذكر، والمراجعة ستنسى، ولن يبق منها إلا يسيرا، ومن هنا يتبين أن **بافلوف** لما اعتمد في تجربته قانون تكرار الإثارة لتحصل الاستجابة، قد أصاب، فالقارئ لشيء يريد حفظه؛ سيبلغ غايته عندما يكون قادرا على تكراره عدة مرات دون ملل، ويقول الله عز وجل في كتابه العزيز: { وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ }⁽²⁾، فهذه الآية الكريمة من سورة الذاريات تتضمن الأمر بالتذكير (الإثارة)، وبيان ما يؤول إليه هذا التذكير، إنه يحقق الانتفاع للمؤمنين (الاستجابة)، والتذكير يكون بالشيء الذي سبق العلم به، كما أنه يقتضي تكرار الشيء المذكور به، فتبين انطلاقا من هذه الآية، ومن الخبرين قبلها، أن تكرار الإثارة من الوسائل الضرورية لتحقيق الاستجابة، وأن قانون التكرار الذي تبناه **بافلوف**، واعتمده في تحقق الاستجابة، من القوانين التربوية الناجعة، والتي ينبغي أن تسجل ضمن محاسن النظريات الترابطية.

المطلب الثاني: نظرية واطسن:

الفرع الأول: ربط الاستجابة بالمثير.

هذه القاعدة تقدم الحديث عنها في نظرية بافلوف السابقة.

الفرع الثاني: سلوك الإنسان قابل للتغيير من حال إلى حال.

توصل واطسن في تجربته التي أجراها إلى إثارة خوف طفل من فأر كان مألوفا عنده، وذلك بإطلاق صوت مزعج مصاحب للفأر عندما يظهر للطفل، وبعد تكرار العملية، تغير سلوك الطفل، فأصبح يخاف الفأر دون أن يصاحبه صوت، واستخلص واطسن من هذه التجربة أن سلوك الإنسان قابل للتغيير من حال إلى حال، حتى ولو كان سلوكا مرضيا، فإنه يمكن التخلص منه، إذا سلكت الخطوات المناسبة، وإذا تأملنا أحوال الصحابة قبل مجيء الإسلام، وما كانوا عليه من فساد الأخلاق، وحاولنا مقارنة ذلك بأحوالهم، وأخلاقهم بعد دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم، لا تضح أن ما توصل إليه واطسن في تجربته من كون سلوك الناس قابلا للتعديل والتغيير، من المسلمات الواضحات، التي لا مرية فيه، والله عز وجل قد أوضح ذلك، ونص عليه في كتابه قائلا: { إن الله لا يغير ما بقوم حتى يُغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءًا فلا مردَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَّالٍ }⁽³⁾، وقال عز وجل: { ونفس وما سواها (7) فألهمها فجورها وتقواها (8) قد أفلح من زكاها (9) وقد خاب من دساها (10) }⁽⁴⁾، فلو لم يكن سلوك الناس قابلا للتغيير، لما ربط عز وجل تغيير ما بالناس من خير أو شر، بما هم عليه من خير أو شر، ولما نسب تركية النفس، وفسادها إلى صاحبها، وليس القرآن الكريم وحده هو الذي أصل لهذه القضية، وأكدها، بل أيضا قد ثبت عن الرسول صلى الله عليه وسلم أحاديث كثيرة في هذا المعنى، منها قوله صلى الله عليه وسلم في حديث أبي هريرة رضي الله عنه «إنما العلم بالتعلم، وإنما الحلم بالتحلم، ومن يتحرر

(1) صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب استذكار القرآن، وتعاهده، رقم الحديث (5031)، صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب الأمر بتعهد القرآن، وكراهة قول نسيت آية كذا، وجواز قول أنسيتها، رقم الحديث (789).

(2) سورة الذاريات، الآية: (55).

(3) سورة الرعد الآية: (12).

(4) سورة الشمس الآية: (7-10).

الخير يعطه، ومن يتوق الشر يوقه»⁽¹⁾، وأيضا ما ثبت عنه صلى الله عليه وسلم من حديث أبي بردة عن أبيه قال: قال رسول الله الله عليه و سلم: «أما رجل، كانت عنده وليدة فعلمها فأحسن تعليمها، وأدبها فأحسن تأديبها...»⁽²⁾، فالحديث الأول بين أن الحلم بالتحلم، والثاني بين أن الخلق؛ يحسن بالتأديب، والتربية، ويستنتج من ذلك؛ أن الخلق الحسن يكتسب بالمران، والتدريب، والمجاهدة، وما ذلك إلا تغيير في السلوك، واستبدال للصفات المذمومة بالصفات الحميدة، ثم إضافة إلى ما تقدم؛ إذا تأملنا حديث أبي موسى - رضي الله عنه - عن النبي صلى الله عليه و سلم قال: مثل الجليس الصالح، والسوء، كحامل المسك، ونافخ الكير، فحامل المسك، إما أن يحذيك؛ وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحا طيبة، ونافخ الكير، إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد ريحا خبيثة»⁽³⁾، سنخلص إلى النتيجة التي خلص إليه واطسن، ألا وهي قوله: إن سلوك الإنسان قابل للتغيير والتبديل، وإذا كان للتكرار دور فعال في حصول الاستجابة عموما، وأثر واضح في تحقيقها كما سبق، فإن تغيير السلوك "استجابة" تتوقف أيضا على التكرار والاستمرار، كما قرر ذلك واطسن في تحريته السالفة.

المطلب الثالث: نظرية سكينر:

الفرع الأول: الدعم أو التعزيز بالمثير؛ يكون بعد الاستجابة، وهو نوعان: تدعيم إيجابي، وتدعيم سلبي.

بالنسبة لسكينر، فإنه يرى التدعيم السلبي (العقاب) ضعيف الأثر، وسرعان ما يزول مفعوله، لكن يوجد من رواد هذا الاتجاه وهو جاثري⁽⁴⁾ الذي يرى أن العقاب إذا كان يسيرا يؤدي إلى الاستمرار في السلوك، وإذا كان حادا، فإنه يؤدي إلى الاستمرار في النشاط، من أجل تحقيق الهدف الذي يزيل التوتر⁽⁵⁾.

سبقت الإشارة إلى هذه القاعدة فيما تقدم، وذكرت أن التدعيم، أو التعزيز قد يكون إيجابيا أو سلبيا، فالإيجابي: يكون بالإثابة ونحوها، أما السلبي، فيكون بالعقاب، وسكينر يستخدمهما بعد أن تحصل الاستجابة، - خلافا للافولف الذي يقدم المثير على الاستجابة -، فإن حقق الكائن الحي الاستجابة التي يريدتها، فإنه يثيبه على ذلك، تشجيعا له على الاستمرار والثبات على تلك الاستجابة، وإن صدر من الكائن الحي استجابة لا يريدتها، فإنه يعاقبه بالحرمان من الثواب، ولا يرى للعقاب المباشر أثرا مرضيا في تغيير السلوك، إلا أن جاثري يخالفه في هذا التوجه، ويرى أن العقاب إذا كان حادا يؤدي لا محالة إلى الاستمرار في النشاط من أجل تحقيق الهدف - الاستجابة - الذي يزيل التوتر، وما ذهب إليه سكينر من أن التدعيم أو التعزيز الإيجابي (الثواب) هو حقا ذو أثر بالغ في تغيير السلوك وتحقيق الاستجابة، وكذا إثابته للمستجيب بعد الاستجابة، وكل ذلك والحمد لله قد قام به نبينا صلى الله عليه وسلم، ومن أمثلة ذلك في هذا الصدد، سياسته التي انتهجها في توزيعه للغنائم على المجاهدين في بداية الدعوة الإسلامية، ذلك

(1) أخرجه الخطيب في تاريخه (129/9)، وأخرجه غيره، وقال عنه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (670/1)، رقم الحديث: (342).

(2) صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب اتخاذ السراري، ومن أعتق جارية ثم تزوجها، رقم الحديث (5083)، صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم إلى جميع الناس ونسخ الملل بملته، رقم الحديث (154).

(3) صحيح البخاري، كتاب الذبائح والصيد، باب المسك، رقم الحديث (5534) صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب مجالسة الصالحين ومجانبة قرناء السوء، رقم الحديث (1628).

(4) ادوين جاثري (1886 - 1959) وهو عالم من أصل أمريكي، يعد من أقطاب النظرية السلوكية.

(5) سيكولوجية التعلم بين النظرية، والتطبيق، للدكتور سيد محمد خير الله، والدكتور ممدوح عبد المنعم الكنان، (ص: 258)، نظريات التعلم وتطبيقاتها التربوية، (106).

أنه كان يعطي لكل قاتلٍ كافرٍ من المسلمين سلبه بعد القتل - بعد الاستجابة - ، تشجيعا للمسلمين على القتال والجهاد في سبيل الله، فعن أبي قتادة رضي

الله عنه قال: «خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين، فلما التقينا كانت للمسلمين جولة، فرأيت رجلا من المشركين علا رجلا من المسلمين، فاستدرت حتى أتيت من ورائه، حتى ضربته بالسيف على جبل عاتقه، فأقبل علي فضممني ضمة وحدث منها ریح الموت، ثم أدركه الموت فأرسلني، فلحقت عمر بن الخطاب فقلت ما بال الناس؟ قال أمر الله، ثم إن الناس رجعوا، وجلس النبي صلى الله عليه وسلم فقال: «من قتل قتيلًا له عليه بيعة فله سلبه». فقلت: من يشهد لي؟ ثم جلست، ثم قال: «من قتل قتيلًا له عليه بيعة، فله سلبه». فقلت: من يشهد لي؟ ثم جلست، ثم قال الثالثة مثله، فقلت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما بالك يا أبا قتادة؟» فاقترضت عليه القصة، فقال رجل: صدق يا رسول الله، وسلبه عندي، فأرضه عني، فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: لاها الله إذا لا يعتمد إلى أسد من أسد الله يقاتل عن الله ورسوله صلى الله عليه وسلم يعطيك سلبه. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «صدق» فأعطاه، فبعت الدرع فابتعت محرفا في بني سلمة، فإنه لأول مال تأثنته في الإسلام⁽¹⁾، فالرسول صلى الله عليه وسلم في هذه الغزوة، قد أعطى كل من قتل قتيلًا سلبه، وفعل ذلك بعد نهاية المعركة، ولا يخفى ما في ذلك من تشجيع، وإثابة للقاتل، ليستمر ويحرص على أن يكون أكثر قوة وشجاعة في المعارك القادمة، فالمدعم هنا والمعزز، هو (السلب) والاستجابة هي (خوض المعركة بشجاعة لهزيمة الأعداء)، هذا بالنسبة للدمع أو التعزيز الإيجابي، أما السلبي: فإنه يكون بمعاينة الفاعل على فعله، أو استجابته غير المرغوب فيها، وبالرغم من تقليل سكين من مفعول التعزيز السلبي، فإن جاثري يؤكد على أن التعزيز السلبي، يؤدي إلى الاستجابة كلما قويت حدته، وإذا أجلنا النظر قليلا في الشريعة الإسلامية، فإنه سيتضح لنا أن ما ذهب إليه جاثري ليس ببعيد عن الصواب، ذلك أن الحدود التي وردت في القرآن والسنة، إنما هي تدعيم سلبي (عقاب)، الغرض منه ردع المرتكب للفعل الموجب للحد ليكف عن ارتكاب ذلك مرة أخرى، لذلك؛ فإن ما توصل إليه جاثري من خلال تجربته، وما قرره من كون التعزيز (العقاب) ذو أثر كبير في حمل الكائن الحي على الاستجابة المطلوبة، تؤكد النصص الشرعية الواردة في هذا الباب، بل جاء في بعض النصص ما يدل على أن الإنسان قد يستقيم ويلتزم الأدب، بمجرد أن تعرض عليه أداة العقاب، قال ابن عباس: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «علقوا السوط حيث يراه أهل البيت فإنه لهم أدب»⁽²⁾، فحديث الرسول صلى الله عليه وسلم يبين أن أهل البيت يعتبرون بمجرد رؤيتهم للسوط معلقا؛ لأنهم يدركون أنه أداة التأديب والعقاب (الدمع السلبي)، ومن ثم يكفون عن كثير من الاستجابات التي هي من الأمور المخلة بالأدب، ومما تقدم، يتبين أن التدعيم أو التعزيز السلبي (العقاب)، يحقق الاستجابة المطلوبة، خلافا لما ذهب إليه سكين في تجربته.

(1) صحيح البخاري، كتاب فرض الخمس، باب من لم يخمس الأسلاب...، رقم الحديث (3142)، صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب استحقاق القاتل سلب القتيل، رقم الحديث (1751).

(2) أخرجه أبو القاسم سليمان الطبراني في المعجم الكبير (345/10)، رقم الحديث: (10671)، وغيره، وقال عنه الألباني في السلسلة الصحيحة حسن إن شاء الله (432/3)، رقم الحديث (1447).

خاتمة

بعد هذه الجولة اليسيرة، في حقل النظريات التعليمية، وربط جملة من قواعدها وأفكارها التربوية ببعض النصوص الشرعية، يتلخص عندنا أمور أهمها:

- إن النظريات التعليمية قد أسست قواعد ووضعت قوانين يستفاد منها في عملية التعلم.
- إن ما انتهت إليه النظريات التعليمية من النتائج، ليس كله مقبولا وصحيحا، بل منه المقبول والمردود.
- إن أصحاب النظريات الترابطية، يركزون في تحصيل المعرفة على قاعدة لا استجابة بدون مثير.
- أغلب رواد المدارس الترابطية أمريكيان وبعضهم، روسيون.
- القول عن قاعدة أو قانون إنه إيجابي، لا يعني أنه إيجابي في كل شيء، وفي كل الأحوال. - ما توصل إليه علماء النظريات التعليمية من الحق والصواب له ما يؤكد في شرعنا الحنيف، مما يقتضي من المسلمين العناية بترائهم واستخراج درره وجواهره المتعلق منها بالتعلم وغيره.
- إن الاستفادة من النظريات التعليمية، لا تتحقق إلا بالأخذ منها جميعا دون اقتصار على اتجاه معين؛ لأنها متكامل فيما بينها، وكلها فيها إيجابيات يستفاد منها ويؤخذ بها، وسلبيات ينبغي التنبه إليها لا يستفاد منها، فلا ينبغي الأخذ بها.
- إذا قيل عن أمر في نظريات التعلم، إنه إيجابي، فلا يعني ذلك أنه يؤدي أكله دون عناء؛ أو أنه بمجرد الأخذ به ستتغير النتائج في الحال، وتكون تماما كما نريد بل لا بد من مكابدة واستمرار.
- القول بأن النظريات التعليمية يوجد فيه إيجابيات لا يعني أن كل أمر إيجابي مفيد في عملية التعلم قد أسست له ووضعت له القواعد بل هناك عقبات كثيرة في عملية التعلم، لا يوجد جواب عنها في نظريات التعلم.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم برواية ورش عن نافع.
- التربية والتعليم من أجل التنمية، تأليف محمد عليلوش، منشورات مجلة علوم التربية، مطبعة النجاح الجديدة "الدار البيضاء، المغرب"، الطبعة الأولى: 2007 م.
- الجامع في علوم التربية وقضايا ومستجدات التربية والتكوين، الجزء الأول، تأليف عبد الرحمن التومي، مطبعة الأمنية، الرباط، المغرب"، الطبعة الأولى: 2024 م.
- دليل علوم التربية والديداكتيك العام، تأليف عبد الفتاح ديبون، دار القلم العربي للنشر والتوزيع، "القنيطرة، المغرب"، الطبعة الأولى: 2023 م.
- دليل المدرس التكويني والمهني، تأليف الحسن اللحية (المتوفى: 1447هـ)، دار الحرف للنشر والتوزيع، "القنيطرة، المغرب"، الطبعة الأولى: 2008 م.
- سيكولوجية التعلم، ونظريات التعليم، تأليف الدكتور جابر عبد الحميد جابر، الناشر دار النهضة العربية، دار الاتحاد العربي للطباعة، "القاهرة، مصر"، الطبعة السادسة: 1402 هـ / 1982 م.
- سيكولوجية التعلم بين النظرية، والتطبيق، تأليف الدكتور سيد محمد خير الله، والدكتور ممدوح عبد المنعم الكناني، دار النهضة العربية، "بيروت"، تاريخ الإصدار: 1996 م.
- صحيح البخاري أو الجامع الصحيح المسند المختصر من حديث رسول الله له، وسنته، وأيامه، تأليف أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (المتوفى: 256 هـ)، دار ابن كثير، "دمشق، بيروت"، الطبعة الأولى: 1423 هـ / 2002 م.
- صحيح مسلم، أو المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، تأليف أبي الحسن مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (المتوفى: 261 هـ)، اعتنى به: أبو صهيب الكرمي، إخراج وتنفيذ فريق بيت الأفكار الدولية، بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع، الرياض، سنة الطبع 1419 هـ / 1998 م.
- علم النفس التربوي، تأليف: د. فاخر عاقل. دار العلم للملايين، الطبعة الحادية عشرة 1985 م.
- فتح الباري شرح صحيح البخاري، تأليف الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (المتوفى: 852 هـ)، دار السلام للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى: 1421 هـ / 2000 م.
- لسان العرب، تأليف أبي الفضل محمد بن مكرم بن علي، جمال الدين ابن منظور الأنصاري (المتوفى: 711 هـ)، دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت- لبنان، الطبعة الثالثة: 1419 هـ - 1999 م.
- المحيط في اللغة، تأليف: إسماعيل بن عباد كافي الكفاة، صاحب (المتوفى: 385 هـ)، تحقيق: الشيخ محمد حسن آل ياسين، عالم الكتب، "بيروت" الطبعة الأولى: 1414 هـ / 1994 م.
- المرجع في كيفية التدريس، تأليف الدكتور سعيد حليم، منشورات دار الأمان، الطبع: مطبعة الأمنية، "المغرب - الرباط"، الطبعة الأولى: 1444 هـ / 2023 م.
- المعجم الكبير، تأليف سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبي القاسم الطبراني (المتوفى: 360 هـ)، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، دار النشر: "مكتبة ابن تيمية - القاهرة"، تاريخ الطبع: بدون.

- معجم مقاييس اللغة، تأليف أبي الحسن أحمد بن فارس القزويني الرازي (ت: 395هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: دار الفكر، عام النشر: 1399هـ - 1979م.
- المعجم الوسيط، تأليف مجمع اللغة العربية، أشرف على إخراج هذه الطبعة من مجمع اللغة العربية: شعبان عبد العاطي عطية، وأحمد حامد حسين، وجمال مراد حلمي. ومن مكتبة الشروق الدولية: عبد العزيز النجار، إخراج: مكتبة الشروق الدولية، الطبعة الرابعة: 1425هـ - 2004م.
- المعين في التربية، مرجع لامتحانات المهنية والكفاءة التربوية ومباراة التفتيش، تأليف العربي اسليماني، مطبعة النجاح الجديدة، "الدار البيضاء، المغرب"، الطبعة الرابعة: 2010 م.
- نظريات التعلم، تأليف الدكتور عماد عبد الرحيم الزغلول، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، الطبعة العربية الأولى: الإصدار: الثاني: 2010 م.
- نظريات التعلم وتطبيقاتها التربوية، تأليف د. كفاح يحيى صالح العسكري، ود. محمد سعود صغير الشمري، ود. علي محمد العبيدي، دار تموز للطباعة، والنشر، والتوزيع، دمشق، الطبعة الأولى: 2012 م.